



الصادق الزمرلي (1885 - 1983)
الاديب والسياسي والمؤرخ

بقلم : حمادي الساحلي

في أول شهر فيفري المنصرم ، انتقل إلى جوار ربّه المرحوم الصادق الزمرلي . وبوفاته فقدت تونس آخر ممثل للحركة الوطنية التونسية الأولى التي ظهرت للوجود في مطلع هذا القرن . ولئن كنّا لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاد الفقيد ، فالغالب على الظن أنه ولد بمدينة تونس في حيّ « دار الباشا » بعد انتصاب الحماية بحوالي ثلاث أو أربع سنوات ، أي في سنة 1884 أو

1885 . وبعد إتمام دراسته الابتدائية ، التحق بالمعهد الصادقي ، في مقره القديم الكائن بنهج جامع الزيتونة (حسبما أكدّه لنا الفقيه شفهيًا) ، ونحن نعرف أن المقر الجديد للمعهد الصادقي بالقصبة قد تمّ تدشينه في شهر أكتوبر 1897 (1) . ثم غادر الصادقية قبل إنهاء دراسته الثانوية ، مثلما هو الشأن بالنسبة للكثيرين من أبناء عصره . ولكنه تمكّن مع ذلك من اكتساب زاد لا بأس به من الثقافة الأساسية باللغتين العربية والفرنسية . وما أن دخل معترك الحياة العملية ، حتى انخرط في جمعية قدماء المدرسة الصادقية التي أسسها في سنة 1905 جمع من المثقفين التونسيين وعلى رأسهم صديقه علي باش حانبة . كما انضمّ إلى « النادي التونسي » الذي كان آنذاك ملتقى رجال الفكر والأدب والسياسة . وعندما أصدر علي باش حانبة في سنة 1907 جريدة « التونسي » الناطقة بلسان حركة « الشباب التونسي » ، كان الصادق الزمرلي من أوّل محرّرين فيها ، رغم صغر سنّه ، « وكانت مقالاته حول الشرق محلّ تقدير كبير » (2) .

وفي شهر أكتوبر 1908 شارك في « مؤتمر افريقيا الشمالية » المنعقد بباريس ، ضمن وفد تونسي يضم بالإضافة إليه البشير صفر ومحمد الاصرم ومحمد بلخوجة وعبد الجليل الزاوش وخير الله بن مصطفى والطاهر الأسود . وألقى في المؤتمر محاضرة حول « تعليم البنت المسلمة » ركّزها على ضرورة إحداث مدارس للبنات المسلمات بتونس على غرار المدارس الموجودة بتركيا ومصر ووجوب تدريس جميع المواد باللغة العربية « لأن المسلم حريص أولا وبالذات على المحافظة على تقاليد وعاداته وعلى لغته التي هي قوام شخصيته » .

(1) أحمد عبد السلام « الصادقية والصادقيون » (Sadiki et les Sadikiens) ص 39 منشورات سريس (Cérès) تونس 1975 .

(2) شارل اندري جوليان « المعرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي » ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة - تونس - الشركة التونسية للتوزيع (بلا تاريخ) .

« ولأن الأم هي القادرة وحدها على غرس حب اللغة القومية في نفوس أطفالها . فهي في حاجة إلى حذق تلك اللغة » (3) .

وبعد رجوع الوفد من باريس وإحرازه على نجاح باهر ، نشطت الحركة الوطنية وازداد نطاقها اتساعاً . فأصدرت جريدة « التونسي » الناطقة بالفرنسية في شهر أكتوبر 1909 نشرة عربية « اشترك في تحريرها الشيخ عبد العزيز الثعالبي والأستاذ الصادق الزمرلي . فكان أولهما ينشئ المقالات بالعربية ابتداء وكان ثانيهما مع ما يكتب من المقالات بالعربية يعرّب مقالات باش حانية والزاوش وقلاتي عن النشرة الفرنسية ، ويتقل عن الصحف الأجنبية الأفكار والأخبار . فأصبحت جريدة « التونسي » مقرّ القيادة الوطنية في الميدان الصحفي » (4) .

وبمناسبة الإضراب الذي شنه طلبة جامع الزيتونة في 15 مارس 1910 للمطالبة باصلاح التعليم ، تمّ التلاحم بين حركة « الشباب التونسي » وبين الحركة الزيتونية الاصلاحية ، وانعقد اجتماع عام بالقصبة أمام المدرسة الصادقية يوم 13 ماي 1910 ، للاحتفال بنجاح الاضراب والإفراج عن الطلبة الموقوفين . وقد تناول الكلمة عدد من قادة الحركة الوطنية للتعبير عن تضامنهم مع الطلبة . وكان من بين الخطباء الصادق الزمرلي « الذي أشار إلى هذه الفرصة المتاحة للشبيبة المدرسية وتلامذة الجامع الأعظم ليؤكدوا — رغم الصائدين في الماء العكر — على روابط التضامن والتعاطف المتبادل والتفاهم التام فيما بينهم . كيف لا وهم ينتمون إلى بلد واحد ويتكلمون لغة واحدة ويسعون إلى غاية واحدة » (5). ومن النشاط الذي قام به الفقيد في تلك الفترة مساهمته في النهوض

(3) الشاذلي خير الله « حركة الشباب التونسي » (Mouvement Jeune Tunisien) ص 149 - بونيشي (Bonici) تونس (بلا تاريخ) .

(4) محمد الفاضل بن عاشور « الحركة الأدبية والفكرية في تونس » ص 111 الدار التونسية للنشر - تونس - 1972 .

(5) الشاذلي خير الله « الحركة التطويرية التونسية » (Mouvement évolutionniste tunisien) الجزء الثالث ص 28 - مارك غارو (Marc Garrot) تونس 1938 .

بالمسرح التونسي ، حيث كان من مؤسسي « جمعية الآداب العربية » التي تكوّنت في سنة 1911 وقدمت روايتها الأولى « صلاح الدين الأيوبي » بالمسرح البلدي بالعاصمة يوم 7 أفريل من تلك السنة .

« وبعد انتهاء الفصل الثاني من الرواية ونزول الستار ، ظهر الأديب الصادق الزمري على المسرح وألقى خطابا مسهبا بليغا أتى فيه على تاريخ وضع التشخيص وأطواره وفوائده وطلب من الحاضرين تعضيد (هكذا) الجوق التونسي الذي سيقوم (هكذا) بفوائد عظي من حيث تهذيب الاخلاق وتربية الأمة وبعث اللغة العربية » (6) .

ولقد بلغت حركة « الشباب التونسي » أوجها في سنة 1912 وشملت جميع الميادين ، السياسية منها والثقافية والاجتماعية . فاستغلت السلطة الفرنسية التي كانت تتربّص بها الدوائر ، قضية « مقاطعة الترامواي » (9 فيفري 1912) ، لتقضي على الحركة القضاء المبرم .

وفي فجر يوم 13 مارس 1912 ألقى القبض على سبعة من قادة « الشباب التونسي » وهم : علي باش حانية وعبد العزيز الثعالبي ومحمد نعمان وحسان قلاتي والصادق الزمري والمنوبي درغوث والمختار كاهية .

أما الأربعة الأولون فقد تمّ إبعادهم خارج تراب المملكة بدون محاكمة ، وأما الصادق الزمري والمنوبي درغوث فقد أبعدا إلى الجنوب . واقتصرت السلطة في خصوص المختار كاهية على سجنه قرب عائلته بالعاصمة لقربته بالأسرة المالكة .

وقد أوحى هذه الاجراءات التعسفية إلى أمير الشعراء الشاذلي خزنه دار قصيدته الشهيرة التي يقول في مطلعها :

(6) المنصف شرف الدين « المسرح التونسي » ص 30 - تونس 1972 .

أبكي لفرقتهم وهم أحياء سبعا بكتهم تونس الخضراء
ما كان في كفي الحسام وإنما من تحت فكّي حية رقطاء
أرسلتها حصبا على مغتالهم فتريه ماذا يفعل الشعراء (7)

وبعد أشهر قليلة رُفِع قرار الإبعاد فرجع المنفيّون إلى العاصمة باستثناء الزعيم علي باش حانبة الذي رفض العودة وقرّر الاستقرار نهائيا بتركيا لمقاومة الاستعمار الفرنسي من الخارج . وقد التحق به الصادق الزمرلي بالأستانة (8) ولم يرجع إلى تونس إلا بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى .

ولقد ركزت الحركة الوطنية طوال مدة الحرب ولم تستعد نشاطها إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها وأعلن عن مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسن الأربعة عشر ، وخاصة المبدأ المعترف بحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها . فأخذ الوطنيون التونسيون آنذاك في إعادة تنظيم صفوفهم وجمع شملهم وضبط مطالبهم . وفي شهر جويلية 1919 أوفدوا إلى باريس الشيخ عبد العزيز الثعالبي لتعريف الرأي العام العالمي والفرنسي على وجه الخصوص بالقضية التونسية وعرض مطالب الحركة الوطنية على الحكومة الفرنسية . وكان أوّل عمل قام به الشيخ بباريس نشره لكتاب « تونس الشهيدة » باللغة الفرنسية في ديسمبر 1919 .

والجدير بالملاحظة أن هذا الكتاب الخالي من ذكر اسم مؤلفه ، كثيرا ما كان ينسب إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي نفسه . إلى أن ظهرت فيما بعد بعض الوثائق التي أثبتت أن كتاب « تونس الشهيدة » هو عمل جماعي ، قد ساهم في تأليفه إلى جانب الشيخ عبد العزيز الثعالبي كل من علي كاهية وحمودة المستيري والصادق الزمرلي ، ونقله إلى اللغة الفرنسية أحمد السقا (9) .

(7) ديوان الشاذلي خزنة دار . الدار التونسية للنشر 1972 ج 1 ص 55 .

(8) صلاح الدين التلاتي : « الصادق الزمرلي يلتحق بالاسرة الكبرى للشخصيات التونسية البارزة » جريدة لأبراس (La Presse) تونس 1983 - 2 - 6 .

(9) تقرير بارون (Baron) المجلة التاريخية المغربية العدد 27 - 28 ديسمبر 1983 ، ص 314 .

كما ساهم الزمري مساهمة فعالة في جميع الاجتماعات والمشاورات والمناقشات التي جرت بين الوطنيين في تونس طوال سنتي 1919 و 1920 إلى أن أفضت إلى الإعلان عن تأسيس « الحزب الحر الدستوري التونسي » في شهر جوان 1920 .

ولكن ما أن تأسس الحزب وشرع في تركيز هياكله حتى بدأت الخلافات تدبّ بين القادة حول طرق العمل الواجب اتباعها لبلوغ الأهداف المرسومة في كتاب « تونس الشهيد » . فبينما ترى الأغلبية الملتفة حول الشيخ الثعالبي ضرورة المطالبة بالدستور والحكم الذاتي في العاجل والاستقلال في الآجل ، يدعو الشق المعتدل الذي يتزعمه حسان قلائي إلى قبول الإصلاحات التي وعدت بها الحكومة الفرنسية في نطاق نظام الحماية . وانتهى الأمر بهذا الشق إلى الانفصال عن الحزب الدستوري في سنة 1921 وتكوين حزب جديد أطلق عليه اسم « الحزب الاصلاحى » .

ووجد الصادق الزمري نفسه مضطراً للاختيار بين الحزبين . ومال بطبيعته إلى الحزب الاصلاحى ، بناء على ما كان يربطه من علاقات مثينة بقيادة ذلك الحزب ، وعلى رأسهم صديقه القديم حسان قلائي . وتركز نشاطه بالخصوص على التحرير في الجريدة الأسبوعية التي أصدرها الحزب في سنة 1921 وهي جريدة « البرهان » .

ولكن الحزب الاصلاحى لم يستطع جلب الجماهير إلى صفوفه ، فانقلب إلى مجرد مجمع يضم عددا قليلا من المثقفين الذين لا صلة لهم بالشعب .

وبعد مدة قليلة توقفت جريدة « البرهان » عن الصدور بمحض إرادتها وبقي الحزب الاصلاحى يعمل على نطاق ضيق ، إلى أن انحلت تماما على إثر فشل زعيمه حسان قلائي في انتخابات المجلس الكبير (10) .

(10) عمر بن قفصية « اضاء على الصحافة التونسية » ص 26 - منشورات بوسلامة 1972 .

ولقد تأثر الصادق الزمرلي بالغ التأثير بما تسبّب فيه ذلك الانشقاق من تشتّت في صفوف الوطنيين المخلصين . فانقطع عن كل نشاط سياسي وتفرّغ للقيام بمهامّه الإدارية بوزارة العدل التي أحدثت في سنة 1921 وأصبح من أعضاء الوزير الجديد الطاهر خير الدين الذي بقي على رأس وزارة العدل إلى سنة 1934 .

وإلى جانب عمله الإداري تولّى تدريس التاريخ والترجمة بالمدرسة العليا للغة والآداب العربية التي يشرف عليها آنذاك المستشرق ويليام مرساي (W. Marçais) كما عاوده الحنين إلى الكتابة عن القضايا الشرقية التي كانت محلّ اهتمامه ضمن أسرة جريدة « التونسي » ، فنقل إلى اللغة العربية ، بالاشتراك مع الاستاذ محمد بورقية ، تصنيف الكاتب التركي أحمد رضا باي :
« الافلاس الأدبي للسياسة الغربية بالشرق » (11) .

وأبّت الظروف إلّا أن تجرّه لاقترحام الميدان السياسي من جديد خلال الحرب العالمية الثانية . ذلك أن صديقه القديم المغفور له محمد المنصف باي الذي ارتقى إلى العرش في شهر جوان 1942 قد عينه مديرا للدراسم ومنحه لقب « أمير أمراء » . فأصبح منذ ذلك التاريخ يعرف لدى الخاصّ والعام باسم « الجنرال الزمرلي » .

ولم يقتصر دوره على تنظيم المراسم الملكية ، بل أصبح المتكلّم الرسميّ باسم الباي والواسطة بينه وبين المقيم العام الفرنسي من جهة ، وبينه وبين السلط الألمانية والإيطالية من جهة أخرى بعد احتلال قوات المحور للبلاد التونسية في شهر نوفمبر 1942 . كما عينه الباي عضوا في مجلسه الخاص الذي كان يضم بالخصوص الأمير حسين باي شقيق الملك والوزير الأكبر محمد شنيق وبقية

(11) « La faillite morale de la politique occidentale en Orient » الطبعة الأولى : باريس 1922 - الطبعة الثانية منشورات بوسلامة تونس 1979 .

الوزراء الدكتور محمود المطايري وصالح فرحات ومحمد العزيز الجلولي . ولقد قام الفقيه بكل المهام المنوطة بعهدته في مثل تلك الظروف الحرجة ، على أحسن وجه ممكن ، ووجد فيه المنصف باي المستشار المخلص والعضد الوفي .

وبقي مخلصاً له بعد إقصائه عن العرش في 14 ماي 1943 وحتى بعد وفاته في أول سبتمبر 1948 . وقد نشر كتابا (12) سلط فيه الأضواء على الأحداث التي عاشتها بلادنا في عهد المنصف باي وما بذله الملك الشهيد من جهود للدفاع عن السيادة التونسية . ويعتبر ذلك الكتاب المرجع الأساسي لدراسة تلك الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد التونسية .

وعاد الجنرال الزمرلي بعد انتهاء الحرب إلى العمل بوزارة العدل إلى أن أحيل على المعاش في سنة 1955 ، وقد بدأت تتحقق الآمال التي ناضل من أجل تحقيقها منذ شبابه الباكر : ألا وهي حرية تونس واستقلالها .

ولكنه لم يركن إلى الراحة كغيره من المتقاعدين ، بل شمر عن ساعد الجدّ وأخذ في البحث والتنقيب في خبايا التاريخ التونسي ، حتى أخرج لنا سلسلة من الكتب المخصّصة لتراجم نحو الخمسين شخصية من « الشخصيات التونسية البارزة » التي لعبت دورا هاما في تاريخ تونس المعاصر ، على وجه الخصوص ، سواء في الميدان الإداري والسياسي أو في الميدان الفكري والثقافي .

وهكذا فقد أصدر الكتاب الأول « الرواد » (13) في سنة 1966 والكتاب الثاني « التابعون » (14) في سنة 1967 والجزء الأول من الكتاب الثالث

(12) « 1943 - 1942 » Espoirs et Déceptions en Tunisie » الدار التونسية للنشر - تونس 1971 .

(13) « les Précurseurs » منشورات بوسلامة - تونس 1966 .

(14) « Les Successeurs » الدار التونسية للنشر - تونس 1967 .

« المعاصرون » (15) في سنة 1972 والجزء الثاني في سنة 1976 ، وهو آخر كتاب يصدره ، وقد ناهز التسعين من عمره .

ويا حبّذا لو تنقل تلك الكتب إلى اللغة العربية حتى تعمّ فائدتها وتحقق آمال الفقيه الذي تمنى منذ صدور الكتاب الأول « أن يجد فيه الشباب التونسي المتعلق شديد التعلق بماضيّه ، ما يدعوه إلى الاعتزاز بمن بذلوا قصارى جهدهم ليضمنوا له احتلال المكانة المرموقة التي تبوأها السلف في الميدان الثقافي والأدبي في إفريقيّة الاسلاميّة » (16) .

حمّادي الساحلي

(15) « Les Contemporains et les autres » الدار التونسية للنشر - تونس الجزء الأول :

1972 - الجزء الثاني : 1976 .

(16) الغلاف الخلفي لكتاب « الرواد »